مقطعات شعرية

شعر:
أحمد محمد الصديق

توبة

عـــائـدٌ لله منْ غـــفْلَـتـــه
يَـتَـنَزّى فـي لـهـــيـبِ الـنَّـدَمِ
يَتَـــعـالى عَـنْ أراجـيـف الـثَّـرى
نافـضًـا عَـنْهُ غُـبـارَ التُّـهَمِ
يُرْسلُ الـنَّجْـوَى.. وفي أضْـلاعـه
لَوْعَـةُ الـثَّـوْب.. وَجَـمْـرُ الألَمِ
أيْنَ لَيْلُ التّـيـه من شَمْس الضُّحى؟
لا يَعي الأسْـرارَ غَـيْـرُ المُسْلِمِ
مَـنْ تَكُـنْ عَـيْـنَاهُ لـلأرْض.. فَلَـنْ
يَـتَـسـامَى.. أبَدًا لـلأنْجُـمِ
أيُّهـا الـسّـالكُ فـي دَرْب الهُـدى
طاهِـرَ الذَّيْـل.. رَفـيـعَ الـهِـمَمِ
حَـسْـبُـكَ النّـورُ الذي تَـمْلكُهُ
حَـبَّـذا نَيْـلُ الـتُّـقَـى مِنْ مَـغْـنَمِ

■■■

في مهبّ الريح

دَعيني.. دَعيني.. فَالجِراحُ جِراحي
وَكُلُّ جَناحٍ قَـدْ أهيضَ جَناحي
وكلّ صَـبـاح غـابَ قَـبْـلَ أوانه
وَخَلّفَ جَـمْـرًا في القُلوبَ صَباحي
بَكيْتُ.. وَفي صَدْري دُموعي تَأجّجَتْ
لهيبًا.. فَأذْكَتْ ثَوْرَتي.. وَجِماحي
وَرُحْتُ وَصَحْبي حيْثُ شَطّتْ بنا النَّوى
فُلولَ سَحـاب في مَـهَـبِّ رِياحِ
وَأحْـمِلُ كَـالهَمِّ المُلازم غُـرْبَتي
وَقَـدْ فُلّ منْ قَـرْعِ الخُطوبِ سِلاحي
وَيَعْـرِفُني مَنْ شاءَ.. فَـالرّيحُ مَـرْكَبي
تَعَـنَّـرَ بـي في غُـدْوَتي وَرَواحي
وما قَـرَّ لي في الأرْض مُـنْذُ وَطِئْـتُـهـا
قَـرارٌ.. وَلكـنْ لَنْ يَـمـوتَ طِـمـاحي

كلهم بطل..

لا تَعْـدُ عَـيْـنَاكَ عنهُـمْ.. كلُّهمْ بَـطَلُ
وكلُّـهمْ بِرداء الحَـقِّ مُـشْـتَـمِلُ
إنّ الطّريقَ مَـخـوفٌ.. فَالْتَـمِسْ سَـبَبًا
وسَـدِّد السَّـعْـيَ.. لا زَيْـغٌ.. ولا زَلَلُ
ألا تَرى الذّئْبَ خَـلْفَ الشّـاة يَـطْلُبُـهـا
إنْ شَـذَّ مَـسْلَكُهـا.. أو ضَلّت الـسُّـبُلُ؟
وَمـا نَجـا سـاعَـةَ الطّوفـانِ منْ غَـرَقٍ
إلاّ تَقـيٌّ.. بحَـبْـلِ الله مُـتَّـصِلُ
حَـضـارَةُ الطّـيْن.. لا دينٌ.. ولا قَـيَمٌ
وَالكُفْـرُ قـامَتْ على أكـتـافـه دُوَلُ
وأنْـتَ لله.. فلـتَـنْـهَـضْ لـنُـصْـرَتـه
وفي يَمـيـنـكَ سَـيْـفُ اللهِ يَشْـتَـعِلُ
كـتـابُ رَبِّكَ.. نِبْـراسُ الهُـدى أبَدًا
وَسُنّةُ المُـصْطفى.. والـصّـفْـوَةُ الأوَلُ

■■■

أحلام الشهيد

وَقَـفْـتُمْ حِـدادًا على روحِـه
وَمَـا كـانَ يُـغْنيـه هَـذا الوُقـوفْ
ولكـنَّهُ يَـشْـتَـهي عَـوْدَةً
إلى الله حَـقًّـا تَرُصُّ الصُّـفـوفْ
وَتَبْـعَـثُ أمّـتَـهُ لـلجِـهـاد
فَـتَـزْحَفُ للنَّصْر مِنْهَا الزُّحـوفْ
أجَلْ.. تلكَ أحْـلامُـهُ الغـالِـيَـاتُ
تَعَـهَّـدَها في ظلال السُّـيـوفْ
وَمـيـراثُـهُ أبَدًا شـاهِـدٌ
على صِـدْقِـه في عِـرَاك الحُـتـوفْ
قَناديلُهُ مِنْ عُـيـون الجِـراحِ
تَشِـعُّ.. وتَمْـحـو الظّلامَ المخـوفْ
على نَهْـجِـه فَـانهَـضُـوا مـوقنينَ
وَفِـيّينَ بـالعَـهْـد.. شُـمَّ الأنوفْ

من ثمرات الطابع

الشعر الحديث يهيم في وادي الجدب الروحي*

محمد عبدالرحمن الشامخ*

■■■

■ إن موضوعات الأدب الإسلامي واسعة كسعة الخيال الإنساني الذي يحلق في الأعالي، ولا يسف نحو الوهاد والسفوح، عريضة كعرض الكون الذي خلقه الله، وهي عميقة مثل عمق الحياة التي أبدعها الله، والأديب المسلم يعلم بأن الله لم يخلق السموات والأرض وما بينهما باطلا، وأن الله لم يخلق الإنسان إلا ليرقى إلى مقام عبوديته، ويبلغ منزلة الخيرية، ولذلك فإن أدبه ينطلق من هذه الحقيقة فيتنكب طريق الباطل، وينأى بنفسه عن اللهو واللعب، ليتلاءم صوته مع رسالة الكون، وليتفق سعيه مع غاية الخلق وحكمة الوجود.

وإذا كانت بعض نماذج الأدب الحديث قد أصيبت بالخواء الروحي والوهن الخلقي، فإن قضايا الإنسان المسلم ما زالت تقف بباب الأديب العربي الموهوب تدعوه لمعالجتها، وتعتب عليه لإعراضه عنها، ومهادنته لأعدائها، وتتوالى الأحداث في عالم الإسلام، وتتعاقب عليه الكوارث، ولكن هذا الأديب الكبير الموهوب صادف عنها، مشغول بإشكال هامشي من شكول الفكر الأوروبي ومظاهر الترف فيه.

وكما كان نداء فتاة البوسنة لمعتصم اليوم وشاعره أبي تمام موضوعا خصبا لخيال الشاعر المبدع وموهبة الأديب، فإن هناك موضوعات كثيرة أخرى تتصل بجهاد المسلمين وصراع المستضعفين فيهم من أجل البقاء في ديار جاس الأعداء خلالها، وانتهك الغاصبون حرمتها.

أما رأى الشاعر العربي المعاصر الكبير ذلك المجاهد الشيشاني يرابط على مشارف قريته التي اكتست بكثبان الثلج؟ حتى إذا ما نادت مآذن القرية تكبر الله، تلفع برداء أبيض يشبه الكفن ليتخفى به عن أعين العدو، وليجد في روحه عطر الشهادة وأريجها، توارى المجاهد خلف شجرة ثلجية، وقام بين يدي ربه يصلي صلاة المرابط، ويرفع إليه ضراعة المضطر وابتهاله، وعاد إلى رباطه وقد اطمأنت منه النفس، ولامست نسمات الشهادة جبهته التي علقت بها حبات من الثلج، ولم يمض إلا وقت قصير حتى دهم العدو قريته فبقي صامدا في خندقه، يحصد من تقدم من جند العدو، حتى إذا أعياهم شأنه وأهمهم أمره انقض عليه جمع منهم فخر على وجهه يسيل دم الشهادة من حوله، وتردد السهوب صوت تكبيره.

وصوب الأعداء مدافعهم بعد ذلك إلى مآذن القرية فدكوها، وفرح الجند الذين رضعوا مُهُلَ الشيوعية وتغذوا بزقُّومها ورفلوا، وظنوا أن صوت الحق لن يرتفع بعد أن تهدمت مآذنه، وأن الرباط قد أصبح خاليا حين ثوى المرابط مضرجا بدمه، ولكن هالهم أن سمعوا مآذن القرية المجاورة يتعالى فيها النداء بالتكبير والتهليل، وفزعوا عندما رأوا أسلحة المرابطين تتناوشهم من كل صوب. لقد توهموا كما توهم آباؤهم البلاشفة من قبل أن هذه البقاع من بلاد الإسلام قد أصبحت بعد غزوهم أرضا سبخة لا تنبت إلا حسك الشيوعية، وصارت رحم شؤم لا يلد إلا مسخا من مسوخ البلشفية.

وما علموا أن الإسلام شمس تشرق في سماء القوم فلا تغيب عن أعينهم، وغيث مبارك ينزل بأرضهم فلا يبرح الخصب قلوبهم، وقد تتصاعد في الأفق غاشية من غبار أو دخان فتحجب نور الشمس عنهم، وتأتي بشيء من القحط إلى ديارهم، ولكن نور الإسلام نور علوي يشع فلا ينطفئ أبدا، وبذور الإيمان تمكث في النفوس مترقبة متربصة، حتى إذا ما زالت الغاشية، وانقشعت الغمة تجلت أنوار الإسلام، فعانقتها القلوب المؤمنة الظامئة، وتنزل الغيث في الأرض المجدبة فاهتزت وربت، وانتشر في أرجائها الخير، ونما في ربوعها زرع الإيمان.

أما دم الشهيد المرابط فقد رشفت أرض الرباط من رحيقه، وتعطر الترب بنداه ليكون للأجيال المسلمة المقبلة ينبوع خير ينبت الشجر الطيب في شاطئه، ويرتوي دوح الإيمان من معينه.

هذه صورة من الصور الإيمانية الحيوية المشرقة التي تمتد أبعادها وتتسع آمادها لتكون مادة إبداعية تقتنصها مخيلة الشاعر الموهوب، وتصوغها ملكة الكاتب المقتدر. والمسئولية الأدبية لا ترضى للشاعر أن يكون ناديا يذرف الدمع، ويستدر الشفقة، ولكنها تريد من الكاتب والشاعر أن يستخدما ما شاءا من أدواتهما الفنية الإبداعية في معالجة هذه القضايا الإنسانية الحيوية، فالمجال مفتوح أمامهما كي يبلغا في ذلك أقصى مدى يبلغه فن الكتابة والشعر، مادامت هذه الفنية لا تستخدم من وسائل التعبير وعناصر الفكر إلا ما يبلغها إلى بناء شخصية الإنسان العربي المسلم بناء روحيا خلقيا يهبه القوة في مواجهة أعدائه، ويعصمه من أن يصيبه اليأس والقنوط بالوهن والليونة فيصبح طعاما سائغا للطامعين، فليس رزءا أن يستشهد أفراد من المرابطين لأن في

استشهادهم حياة لجند الإسلام، وليس غبنا أن يهدم الأعداء المدن والقرى في ثغر من ثغور الإسلام لأن في هذه يقظة وعبرة لمدن الإسلام وحواضره. ولكن الرزء يحل عندما تنبض القلوب بالجبن، ويسكن الوهن في النفوس، والغبن يأتي عندما تموت روح الجهاد في حواضر الإسلام، ويصاب عقل المسلم بالتذبذب والإمعية فيتخلق بخلق أعدائه. ويتمذهب بمذاهبهم الفكرية، ظنا منه أنه بذلك يواكب ركبهم، ويقف في صف يماثل صفهم، والتاريخ يشهد بأن التابع يصبح ظلا للمتبوع، وبأن التقليد لا يزيد المرء إلا تأخرا في الصف وتعثرا في المسير.

إن المد الإسلامي السلفي الراشد يسير في طريق صاعد يخالف سبيل الأعداء، ولكن بعض المشهورين من أدباء العربية يتجافون عن هذا الطريق في إنتاجهم الأدبي، ويتلقفون ما تقذف به الريح الأوربية النكباء من رؤى فكرية واجتماعية وخلقية، وقد كانوا بهذا عنصرا من عناصر التخذيل، وعاملا من عوامل الجزر المعنوي والضعف الخلقي.

وإذا كانت الكلمة سلاحا معنويا روحيا، فإن من حق القارئ العربي أن يسأل عما أسهم به صناع الكلمة في الحروب التي خاضتها أمتهم العربية في زمنها الحديث، لقد هب عدد من الشعراء البارزين يسلون الأقلام، فرفرفت رايات الشعر تمجد التراب العربي، وتسبح بحمد الوعد الاشتراكي، وتناشد المحاربين أن يبذلوا النفوس في سبيل هذا المجد، وأن يقدموا الدم المسلم قربانا لهذا الوعد، فتب النداء، وانتكست الراية، وتتالت الهزائم، وانتهبت أطراف من الأرض، لأن التراب العقيم لم ينبت للأمة العربية زادا روحيا معنويا، ولأن سراب النظريات السياسية الأوروبية لم يقدها إلا إلى موارد الهلكة.

كان الأديب العربي البارز خلال هذه المعارك رائدا يرتاد لأهله مستنقع الفكر المادي الآسن، وينقل لهم ما التقطته أذنه في مقاهي أوروبا ومنتدياتها من أصوات مردت على التجديف، واحتكمت في عقائدها إلى أهواء البشر، وكان حفيا بما لمحته عينه على قارعة الطريق في أوروبا من مظاهر السلوك والأخلاق. لم يشاقق قلم هذا الأديب دين الإسلام، ولكنه أراد أن يفصل ما بينه وبين الكلمة الأدبية من وشيجة، وأن يحصره في المساجد ويبقيه قابعا في الزوايا كما فعل أهل أوروبا بدينهم من قبل.

وظن هذا الأديب العربي أن في هذا خلاصا للأمة من محنتها، ونجاة لها من داء التخلف الذي حاق بها ولكن الأمة العربية الإسلامية لم تصرم سوى حصاد الهزيمة حين خلبها الظن، ولم تجن إلا ثمار النكسة عندما كذبها الرائد وأضلها الوهم.

ومن عجب أن الأديب العربي الكبير ما زال معرضا عن استخدام مبادئ الدين الحق في بناء أمته، مشيحا بوجهه عن اتخاذ منهجه طريقا إلى إنهاضها من كبوتها، وإلى بذر عقيدة النصر في نفسها، يصنع هذا وهو يدرك ما أصاب تجربة العقود الماضية من تباب، ويرى ما تفعله العقيدة الإيمانية المسلمة في نفوس فئات قليلة مستضعفة من أهل الثغور الإسلامية من عزة إيمانية تتحدى الكفر والطغيان، ومن صمود يجبه امبراطوريات القهر والاستبداد.

إن هذه الفئات القليلة المؤمنة لا تموت بل تستشهد، ولا تولي الأدبار، ولكنها تتحرف للقتال، تزودت بإيمان رباني أصله ثابت وفرعه في السماء واعتصمت بالعقيدة الإسلامية التي فطر الله الناس عليها، فلم تفتل حبالها عناكب الأدب، ولم تدنس معينها أهواء البشر.

وخلاصة القول إن الأدب العربي أدب أمة مسلمة. والمسلم يشهد بأن الله لم يخلق الكون عبثا. فقد أبدع صنعه، فأجاد نظمه، وأحكم قوانينه، ولم يستثن الإنسان من هذه السنن الكونية، فلم يجعل له فلكا يسير بنظام يخالف هذه النظم، ولم يرض له - وقد خلقه في أحسن تقويم - أن يكون أضل من الأنعام فيعيش عيشا سفليا تتحكم به الغريزة، وتوجهه المتعة الآنية، لقد خلقه الله بشرا سويا لكي يعمر الأرض بحسب شريعته، وجعل له ذاتا روحية مدركة تسبح في ملكوت السموات، فتهديه إلى أن يعبد الله وحده، ويتخذ لنفسه من المناهج ما ارتضاه له.

هذه عقيدة المسلم، وتلك نظرته في كنه الحياة وغاية الخلق، وبما أن الأدب نشاط إنساني، فإنه لن يكتب له السداد ما لم يهتد بهذه النظرة ويسع إلى إدراك تلك الحقيقة وإلى الإيمان بتلك الغاية، وعلى الأديب المسلم ألا يمالئ أقواما استحوذت عليهم طبيعة الأنعام فاتخذوا الأدب أداة غواية تفسد ولا تصلح، وتقوض ولا تبني، إن عليه أن يستجيب لنداء الفطرة السوية التي فطره الله عليها، وأن يعيش في وئام فكري مع مبادئه الإسلامية التي ارتضاها الله له، وأن يقتطف الكلمة من تلك الشجرة الطيبة التي امتدت جذورها في أعماق الأرض العربية، وسمت أغصانها في الآفاق تمجد مبدع الكون، وترتشف النفحات النورانية من ضياء الوجود، إن في هذا للأديب العربي المسلم ما يغنيه عن أن يستمع للأصوات الببغاوية التي لا ترضى عن اللغة العربية إلا إذا علت القبعة هامتها، والتفت ربطة العنق حول رقبتها، إنها ليست صوت جدة وابتكار، ولكنها نداء إلى تأصيل التقليد وطمس الهوية، ودعوة إلى معايشة الخذلان الثقافي، والرضا بالإمعية الفكرية.

ويتراءى للكاتب أن في العالم الأوروبي نهرين ثقافيين، أما أحدهما فنهر واسع عميق لا يدرك غوره إلا سباح ماهر نشأ في ضفافه، وتربى في ظل دوحه. وأما الآخر فنهر صغير ضحل تكثر من حوله المستنقعات، وتعلو سطحه الطحالب، وتنقنق في قعره الضفادع ولعل هذا النهر الضحل هو المورد الذي يرده سماسرة الأدب العربي الحديث، والمنقع الذي يجلبون لقومهم ما أسن من مائه، فهل على القارئ العربي من ضير إن أعرض عن بضاعتهم، وهجر منتدياتهم؟

ولقد بدأت فئات مؤمنة في مشرق البلاد العربية ومغربها تمج ما اجتلبه هؤلاء السماسرة من أدب المستنقعات، وتنبذ ما دعوا إليه من أدب التقويض والتبعية.

---

* هذه واحدة من سبع مقالات نشرها الأستاذ محمد عبدالرحمن الشامخ في الملحق الثقافي بجريدة الرياض على مدى سبعة أسابيع متتالية تحت عنوان عام هو: الشعر الحديث يهيم في وادي الجدب الروحي، وهذه كانت المقالة الأخيرة، وقد نشرت في العدد ١٠٣٩١، الخميس ٢٤ رجب ١٤١٧هـ.

* محمد الشامخ: أديب وناقد سعودي، تخرجت على يديه أجيال كثيرة من الطلاب في كلية الآداب، بجامعة الملك سعود. له مؤلفات عديدة، ومقالات كثيرة في الصحف والمجلات.